معاناة القدس والمقدسات تحت الاحتلال الإسرائيلي

The Suffering of Jerusalem and Holy Sites under the Israeli Occupation

المؤلف: محسن صالح
Muhsin Saleh

عرض: زاهر محمد البيك - Reviewed by Zahir Albaik

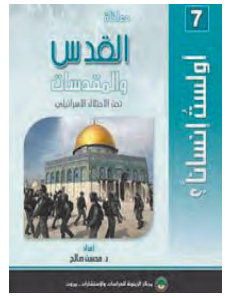

نتناول في هذا العرض كتابًا مهمًّا بعنوان (معاناة القدس والمقدسات تحت الاحتلال الإسرائيلي) للدكتور محسن صالح، يروي معاناة مدينة القدس وسكانها ومقدساتها تحت الاحتلال... نستكشف من خلاله الانتهاكات التي تتعرض لها الأوقاف والمقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين عمومًا وفي القدس على وجه الخصوص على يد الاحتلال...

يقع الكتاب، الذي أصدره عام 2011م مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات ببيروت. في 142 صفحة. ويتضمّن عشرة مباحث. وهو الجزء السابع من سلسلة (أوَلستُ إنسانًا؟) التي تتحدث عن جوانب المعاناة المختلفة الناتجة عن الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وتشريد شعبها، بأسلوب يخاطب العقل والقلب، وفي إطار علمي منهجي موثق.

رفعت الحركة الصهيونية شعارًا ينادي بإقامة كيان لليهود على أرض فلسطين التي كانوا يعدّونها أرضًا بلا شعب لشعب بلا أرض؛ ليتضح بعد ذلك أن هدفها كان من البداية هو إظهار فلسطين –وفي قلبها القدس– على أنها أرض بدون سكان وبدون شعب يقطنها.

وقد تبلورت أهدافها الاستيطانية بداية في مؤتمر (بال بسويسرا) عام 1897 بزعامة تيودور هرتزل الذي لخّص السياسة الصهيونية تجاه القدس بقوله: "إذا حصلنا يومًا على القدس فسأحرق كل شيء ليس مقدسًا لدى اليهود حتى لو مضى عليه قرون". وذلك في محاولة تصفية الشعب الفلسطيني، معتمدة في ذلك على أساليب كثيرة تصب جميعها في سياسة موحدة هي سياسة التهجير. وهي عملية مقصودة هدفها طرد السكان الأصليين ليحلّ محلهم سكان آخرون. وقد اتبعت أساليب وأشكالًا مختلفة للضغط على الفلسطينيين لترك قراهم ومدنهم من خلال مذابح، كان أشهرها مذبحة دير ياسين، ومن خلال سياسة هدم بيوت الفلسطينيين على رؤوس أصحابها في القدس؛ بهدف الوصول إلى واقع ديموغرافي جديد داخل فلسطين يكون لمصلحة المغتصِبين...

إن القدس تشكل محورًا رئيسًا في الكتاب، لذا ورد اسمها في العنوان، والمعلومات والأفكار التي دوّنها الكاتب في صميم قضيتها. ولا غرابة أن يُعَدّ سلمها واستقرارها دلالة على صحة الأمة وقوتها، وأن يُعدّ احتلالها دلالة على ضعف الأمة وتشرذمها.

إن الكتاب يعيد للذاكرة ما عدّه المسلمون والعرب قاعدة: "لا مقدّس بدون القدس، ولا فلسطين والقدس مغتصبة"، وهو يقرر هذا على أنه قاعدة راسخة، ويثبت بالدليل القاطع أن القدس لم تكن، كما لم تكن فلسطين كلها في أي لحظة من لحظات التاريخ– للصهاينة.

ويوضح الكتاب أن معاناة القدس والمقدسات في فلسطين تمّس مناحي الحياة كافة، ويوثّق من خلال

السرد التاريخي الإجراءات التي قامت بها السلطات الصهيونية لاحتلال مدينة القدس وإحكام قبضتها عليها، مقدّمًا نبذة عن بعض القرى والأحياء التي تم الاستيلاء عليها، وطُرد أهلها وسكانها منها، وخرائط وصورًا عن الوثائق الدولية التي تؤكد عدم شرعية الاحتلال الصهيوني للقدس. وهذا -في رأيي- أكثر ما ميّز الكتاب.

كما يوثق الكتاب الاعتداءات التي تعرض لها المسجد الأقصى، من الحفريات التي تهدد بنيانه إلى القيام بتدنيسه، ومصادرة أجزاء منه، إضافة إلى مصادرة البيوت والأحياء الملاصقة للمسجد، وسعي الاحتلال لتحويله إلى منطقة مفتوحة أمام اليهود والسائحين، ليأخذ شكل المتحف والمزار السياحي، ولتُنزَع عنه هيبته ومكانته وطبيعته الإسلامية.

ويستعرض الكتاب كذلك ما قامت به سلطات الاحتلال من أعمال تهويد للبلدة القديمة في القدس، وتحويل هويتها العربية الإسلامية إلى هوية يهودية، وإنشاء مدينة يهودية مقدّسة موازية، تشترك معها في المركز ذاته، وهو ما يعرف بمشروع (القدس أوّلًا).

كما يُعرّج الكاتب على التوسع الاستيطاني ضمن مشروع إقامة القدس الكبرى، والمخططات المختلفة التي تسعى إلى غلق التواصل الجغرافي بين القدس والضفة الغربية، والاستيلاء على أراضٍ فلسطينية شاسعة لضمها إلى منطقة نفوذ القدس.

ويضمّ الكتاب مبحثًا عن الهدف الأهم لإقامة الجدار العازل؛ وهو المضي في برنامج تهويد القدس، ومصادرة أراضيها، وإحاطتها بأطواق من الجدران والمستعمرات التي تخنقها وتعزلها عن محيطها العربي والإسلامي.

كما يتحدث عن خطط تهويد سكان المدينة، وتهجير المقدسيين من خلال سحب حق الإقامة في القدس، إضافة إلى تناول سياسات هدم المنازل ومنع رخص البناء، من أجل الحدّ من النمو السكاني والعمراني للمقدسيين. إن هذا الشكل المنهج أدّى -بحسب ما يطرح الكاتب- إلى تغيير الوضع القائم، ولكنه لم يغيّر من نهج الإرادة والكفاح الذي يتمتع به هذا الشعب الفلسطيني الصامد الذي أفتى منذ عام 1935 بتحريم بيع الأراضي للصهاينة مهما كانت الإغراءات.

ويوثّق الكتاب أيضًا الاعتداءات التي تقوم بها سلطات الاحتلال على المقدسات والأوقاف الإسلامية والمسيحية في فلسطين عمومًا.

يهدف الكتاب إلى إيصال رسالة مفادها أن صمود المقدسيين وتمسكهم بأرضهم يجب أن يجد ما يسنده ويدعمه، ممن يقفون إلى جانب قضيتهم العادلة، وأن على الجميع أن يتجاوزوا لغة الشعارات والآمال إلى لغة البرامج والأفعال، التي تُنفَّذ على أرض الواقع.

يعدّ الكتاب إضافة علمية موثقة إلى الكتب التي تهمّ الباحثين والمهتمين بموضوع القدس والمقدسات، ويتميّز باشتماله على صور فوتوغرافية وخرائط ووثائق أثْرَت الموضوع، وقدمته بصورة مُقنعة ومؤثرة.

وبعد هذا العرض الذي نقلتُ فيه للقارئ معلومات مهمّة من الدراسة أقدّم عددًا من الملاحظات على الكتاب، منها أن الكاتب طالب بضرورة مساندة الجميع للمقدسيين في دفاعهم عن القدس لكنه لم يذكر ما المطلوب منهم تجاه بيت المقدس، وما الآليات والوسائل لتحقيق الهدف المنشود، وهو إنقاذ القدس.

ومما يؤخذ على الكتاب أنه لم يعرض وضع السكان أواخر سنوات الحكم العثماني؛ أي قبل مجيء الاحتلال البريطاني الذي مهَّد للاحتلال الصهيوني. وفي رأيي كان ذكر الإحصاء السكاني آنذاك ضروريًّا، لإثبات أن الغزاة لم يكونوا سوى قليل من المنبوذين من أهل البلاد. إذ قُدِّر سكان فلسطين عام 1914 بحوالي 689 ألفًا، منهم 634 ألفًا من العرب، و55 ألفًا من اليهود، أي أن نسبة الأخيرينَ كانت 8٪ من مجموع السكان.

ولم يتناول الكاتب كذلك الممارسات التعسفية البريطانية ضد الوجود العربي والإسلامي في القدس مقابل الدعم اللامحدود الذي قدمته سلطات الانتداب إلى الحركة الصهيونية العالمية. وعليه فإن ضياع القدس مسؤولية بريطانية بحتة، ويجب استحضار هذه الجريمة في المحافل الدولية.

كما لم يُبرز الكتاب دور الشيخ المجاهد رائد صلاح وزملائه في حماية المسجد الأقصى، ووقوفهم الحازم في وجه الصهاينة، وصمودهم المشرف أمام غطرستهم وسياستهم العنصرية.

وقد أظهر الكتاب انتهاكات الاحتلال الصهيوني بحق الأوقاف المسيحية، لكنه لم يستعرض محاولاته خلق شرخ بين المسلمين والمسيحيين.

لم يستفد الكتاب من الآيات الكريمة التي تتحدث عن القدس، رغم الفائدة المرجوة من ذلك في تحقيق الهدف بحفز الناس على العمل لإنقاذ القدس. ولاسيما أن الصهاينة طالما اتخذوا نصوصهم المحرّفة في التوراة والنصوص الإنجيلية مسوِّغًا لسلوكهم الشنيع، وحافزًا لتشجيع اليهود لإقامة (دولة إسرائيل) التي تمتد من النيل إلى الفرات، وتكون القدس عاصمة لهذه الدولة. فمثلًا، نُقل عن أول رئيس وزراء لإسرائيل دافيد بن غوريون، أنه قال: "إن الكتاب المقدّس هو حجّتنا في أرض إسرائيل".

إن أغلب ما جاء في الكتاب نُقل عن المراجع التي ذكرها الكاتب بالتفصيل، وكنت آمل أن يكون لدى الكاتب قدرة أكبر على بناء صياغة جديدة لمشروع ينقذ القدس، مستفيدًا مما كتبه الآخرون.

ختامًا... إن القدس ليست بوابة السماء فحسب، إنما رسالة الإنسان في الأرض أيضًا، إنها الحضارة التي نبحث عنها منذ فقدناها لأول مرة قبل ثلاثة آلاف عام. ولذلك نحن على يقين بالغ أن عقارب الزمن ستدور لا محالة، وستعود المدينة المقدسة إلى أحضان الفلسطينيين والعرب والمسلمين.

ما أحوجنا اليوم إلى هذا الكتاب الذي ينقلنا بمحطاته إلى عوالم القدس العظيمة، وما تواجهه من تحديات. ويحلق بنا في سماء فلسطين، حيث يطيب الهوى، وننظر إلى الحياة من أعلى قمم المجد.